دور الطريقة الشيخية في مقاومة أولاد سيد الشيخ الثانية

د .بوداوية مبخوت،
أستاذ بقسم التاريخ،
جامعة تلمسان.

مقدمة:

يعد المستشرقون الأوروبيون من مؤرخين وسوسيولوجيين السباقين إلى الاهتمام بظاهرة الطرق الصوفية في الدراسات الحديثة الخاصة بالمغرب الأوسط لكن هذا الاهتمام كان موجها لخدمة أغراضهم وأهدافهم الاستعمارية،على اعتبار أن زعماء المقاومات الشعبية وزعماء الحركة الوطنية كان أغلبهم ينتمون إلى الطرق الصوفية كالقادرية، السنوسية والشاذلية والشيخية (من المستشرقين الذين كتبوا على الطرق الصوفية Jacques Carret في كتابه (Les maraboutismes et les confrérie. Marabouts et Khouans ...) وهذه الطرق من الوجهة التنظيمية عبارة عن تجمعات دينية تضم أفرادا سخروا أنفسهم لخدمة الله وعبادته ضمن جماعة لها نظام خاص، يضم مريدين أو فقراء يرأسهم مقدمون، ويخضع الجميع لشيخ موجه، ولكل طريقة شيخ مؤسس تدعى الطريقة غالبا باسمه، وهو يورث المشيخة لغيره بعد وفاته وغالبا ما يكون من صلبه (عبد القادر خليفي. 2006: 05.)

لقد أشهرت أغلب الطرق الصوفية سيوفها في وجه الفرنسيين الذين وطأت أقدامهم أرض الجزائر1830 ومن بينها الطريقة القادرية التي تنتمي إلى الولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني المولود بمدينة "جيلان" بإيران سنة1079م والمتوفى ببغداد سنة 1166م، وقد دخلت هذه الطريقة كما هو معروف وسط إفريقيا في القرن" 15م" ثم انتقلت إلى المغرب العربي خاصة المغرب الأقصى والمغرب الأوسط (مبخوت بودواية. 1992)، ومن بين الزعماء الجزائريين الذين كانوا على الطريقة القادرية "الأمير عبد القادر الجزائري"مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ، والذي وقف في وجه الفرنسيين 17 عشرة سنة 1830- 1847.ومن بين الزعماء الذين تأثروا بهده

الطريقة "أولاد سيد الشيخ" الذين كانوا يستقرون بالجنوب الوهراني والذين أسسوا طريقة خاصة بهم وهي الطريقة التي عرفت بالطريقة الشيخية.

الطريقة الشيخية: دورها الديني والعسكري 1864- 1908

ـ نبذة تاريخية عن أولاد سيد الشيخ:

ينحدر أصل أولاد سيد الشيخ من أسرة الخليفة الأول" أبي بكر الصديق" وهذا حسب المصادر والوثائق الأجنبية منها أو العربية (Deligny. 1849: In A.O.M 22 h 9) فكانوا يسمون أنفسهم "البوبكرية "، وتشير الوثائق أن أجدادهم الأوائل هاجروا من المدينة المنورة بالحجاز إلى صعيد مصر، وبقوا هناك فترة قصيرة ثم انتقلوا بعدها إلى تونس وذلك في القرن 14 ميلادي ثم هاجروا ليستقروا نهائيا بالمغرب الأوسط تحت قيادة سيدي معمر الذي كان يعد من الأولياء الصالحين ولقد استقرت أغلبيتهم بالجنوب الغربي الجزائري بمنطقة" البيض" حيث كانت تنتشر وديان وشطوط، بجانب بعض القبائل التي استقرت بالمنطقة منذ الفتح الإسلامي وهي قبيلة "بني عامر" (كانت هذه القبيلة تسيطر على مناطق شاسعة من منطقة الجنوب الغربي في اتجاه الشمال حتى ساحل البحر المتوسط و غربا حتى منطقة فجيج المغربية، انظر مبخوت بودواية 1992: 81).

التي كانت تشكل قوة مسيطرة في المنطقة.ولقد شيد أولاد سيد الشيخ بهذه المنطقة قرى منها "أربا التحتاني" و "أربا الفوقاني"، وأقاموا القباب على أضرحة أجدادهم كقبة "سيدي معمر" و"سيدي عيسى بوليلة" و"سيدي بن حية" و"سيدي بوسماحة" (مبخوت 1992: 82. ، Deligny 1849: 3-4)

.كان أولاد سيد الشيخ يرون في هذا الأخير الجد الأكبر ومن خلاله يعلمون تسلسل نسبهم رغم هجرة بعض أبناء سي بوسماحة إلى المغرب واستقرارهم بمدينة"فجيج" وأقامتهم لزاوية دينية .

وتسمية "أولاد سيد الشيخ" بهذا اللقب ـ سيد الشيخ ـ نسبة إلى سيدي محمد بن سليمان بن سي بوسماحة والمدعو سي عبد القادر الذي غير اسمه إلى "سيدي الشيخ" (Pansard .1886:in A.O.M.22 H 1.28) وسبب هذا التغيير يرجعه بعض المؤرخين وخاصة المؤرخ "ترومليي" استنادا لأقوال الأهالي إلى الكرمات التي كانت في شخص "سي عبد القادر"، وبعض المؤرخين يرجعون هذا التغيير على سبيل عدم

الخلط بينه وبين شخص الولي الصالح "سيدي عبد القادر الجيلاني" .ولقب كذلك أي ـ سيدي الشيخ ـ لأن كلمة الشيخ كانت تطلق على ذلك العالم الفقيه وهي مستعملة حتى الآن في مناطق تواجد أولاد سيد الشيخ.

ـ دورها الديني:

لقد انشأ سيدي الشيخ طريقة دينية ودنيوية تمكن بواسطتها أن يفرض على الأهالي نظاما أنهى به الفوضى والاضطرابات التي كانت تحدث بين أفراد العائلة" كما فرض عليهم ضريبة عينية سنوية، و قد أصبحت زاويته قبلة تزورها القبائل المجاورة. (Pansard .1886:in A.O.M.22 H 1.8) و قد عرفت هذه الزاوية بزاوية سيدي الشيخ(Colomb : 03 in A.O.M 22 H 9) كانت تتسم بنظام دقيق إذ كان يشرف على إدارتها خدام جيء بهم من الجنوب الشرقي (توقرت) وقد تمثلت مهمتهم في الإشراف على المداخيل الزراعية: ضرائب، زيارات، هدايا (Pansard .1886:in A.O.M.22 H 1.28).

و لقد تصارع أولاد سيدي حول هذه المداخيل والاستحواذ على نفوذ والسلطة وهذا ما أدى ببعض الأبناء إلى مغادرة المنطقة بحثا عن الأمن والأمان خاصة بعد تعيين سيدي الشيخ المتوفى سنة 1615 (Deligny. 1849: In A.O.M 22 h 13) ابنه البكر سي الحاج بوحفص خليفة له على رأس السلطة الدينية والدنيوية وهذا التعيين أدى في النهاية إلى التنازع عنيف وصل إلى أشغال نار الفتنة والحرب بين الإخوة، وقد وصل هذا النزاع إلى قتال مسلح (وقعت بين الطرفين معركتان حاسمتان الأولى كانت بمنطقة تدعى بالتواجر والثانية بأم الفيران). نتج على أثره انقسام قبيلة أولاد سيدي الشيخ إلى قسمين فرع أولاد سيدي الشيخ : الفرع الشرقي وأولاد سيدي الفرع الغربي هذا الأخير الذي غادر المنطقة واستقر بالمغرب الأقصى لفترة ليست بالطويلة.

ـ دور الطريقة الشيخية في مقاومة أولاد الشيخ الأولى:

توجت انتصارات الماريشال "بوجو" Bugeaud على القوات المغربية في موقعه ايسلي Isly بالحدود المغربية الجزائرية بالمعاهدة الأولى عرفت بمعاهدة طنجة 10 سبتمبر 1844 و نصت في بندها الرابع على محاصرة مقاومة الأمير عبد القادر بالحدود المغربية الجزائرية من طرف القوات المغربية غربا والقوات الفرنسية شرقا،

أما المعاهدة الثانية فهي معاهدة لالة مغنية المبرمة يوم 18 مارس 1845م والتي تعد الفيصل بين النزاع المغربي الفرنسي على الحدود، حيث بموجب هذه الاتفاقية حددت الحدود الشمالية بين الجزائر والمغرب وحدد معها مصير بعض القبائل المتواجدة على هذا الخط والتي كان لهما ذلك التأثير الديني على المنطقة وما جاورها ومن بين هذه القبائل قبيلة أولاد سيدي الشيخ وزاويتهم الشهيرة. لقد أعطت معاهدة لالة مغنية 1845 الضوء الأخضر للحد نهائيا من مقاومة الأمير عبد القادر و مواصلة فكرة احتلال المناطق الداخلية والجنوبية وإخضاع الأهالي، وكذلك الإشراف على مرور المواد المصنعة القادمة من أسواق الشمال متوخية الطرق الصحراوية، وبصفة رسمية وواضحة قام وزير الحربية في عهد الملك "لويس فليب" « Louis Philip » و هو الماريشال سولت Soult في سنة 1845 في تقرير رفعه إلى الملك بتحديد الغايتين الإستراتجية والتجارية من توسيع الاحتلال إلى الجنوب وجاء في التقرير يجب: أن تؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال، صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين ... و هذه المناطق ستفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة..." (أندري يريان وآخرون: 384- 385.).

و فعلا هذا ما قامت به الحكومة الفرنسية باحتلالها للجنوب والحد من سيطرة أولاد سيدي الشيخ الدينية والدنيوية على المنطقة وإرغامها على الانضواء تحت السيطرة الفرنسية بالجزائر لاسيما الفرع الشرقي، التي حاولت فرنسا أن تجعل منه وسيلة لتوسعها نحو الجنوب الغربي الكبير حيث عينت سيدي حمزة ولد أبي بكر، ـ بعد مساومات و مشاورات ـ خليفة على الجنوب الجزائري سنة 1850 والذي قاد حملات عسكرية إلى جانب الفرنسيين في إخضاعهم للقبائل الثائرة كقبائل حميان الشفاعة القاطنة على الحدود المغربية الجزائرية أفريل 1853، وحملة عسكرية أخرى ضد سلطان ورقلة.

لقد تفطن أولاد سيدي الشيخ لنوايا الفرنسيين لاسيما بعد مقتل كل من سي حمزة بن بوكر بالعاصمة وابنه سي بوبكر بن حمزة 22 جويلية 1862، وعزل القائد سي الزبير من أغاوية ورقلة وتعيين شقيقه سي لعلا بن بوكر بالإضافة إلى شعور أولاد سيدي الشيخ بأنهم أصبحوا موظفين قابلين للعزل والتغيير الأمر الذي

دفع بهم إلى إعلان الانفصال عن الفرنسيين ومحاربتهم في عدة مواقع بزعامة كل من سي سليمان بن حمزة (لقد استجاب لدعوة سي سليمان بن حمزة قبائل عديدة من بينها أولاد زياد الغرابة الشراقة، دراقة الغرابة والشراقة، وقبائل الشعامبة إضافة إلى أهالي القصور المجاورة لقصر الأبيض سيدي الشيخ كقصر غاسول، أغواط الكسل.) وسي محمد بن حمزة، وسي أحمد بن حمزة ومن بين المواقع التي حقق فيها أولاد سيدي الشيخ انتصارات كبيرة موقعة عوينة بوبكر 18 أفريل 1864 (Guenard (l). 1883:13.14) الواقعة شرق مدينة البيض (وصل عدد قوات سي سليمان بن حمزة إلى أكثر من ثلاثة ألاف رجل مسلحين بالبنادق والسيوف والخناجر، ألحقت الهزيمة بالضباط بوبريتر Beau Prêtre ، و لقد توفي سي سليمان بن حمزة متأثرا بجراحه)، ومعركة الشلالة 1865، ومعركة أم الدبداب 1869 إلخ ...و لقد خاض أولاد سيدي الشيخ عدة معارك ورغم عدم تحقيق انتصارات تذكر إلا أنهم أوقفوا النزوح الفرنسي نحو الجنوب لفترة من الزمن و هددوا مصالحهم بالمنطقة.

ـ دور الطريقة الشيخية الديني و العسكري في مقاومة أولاد سيدي الشيخ 1875-1908.

كانت معركة ديسمبر 1879 آخر معركة خاضها أولاد الشيخ الفرع الشرقي ضد الفرنسيين الذين حققوا انتصارات كبيرة الأمر الذي دفع بأولاد سيدي شيخ الفرع الشرقي إلى الهروب نحو الجنوب (توات)، ولم تشكل هذه الهجرة فراغا سياسيا بالمنطقة إذ سرعان ما ظهر على مسرح الأحداث أولاد سيد الشيخ الفرع الغربي بزعامة المجاهد المتصوف أبي عمامة الذي وقف في وجه الفرنسيين لأكثر من 25 سنة.

المتصوف أبي عمامة:

هو محمد بن عربي بن شيخ بن الحرمة بن محمد بن سيدي إبراهيم بن التاج المعروف بابي عمامة وهو الابن الثالث عشر لجد الأسرة لسيدي الشيخ الكبير ينتمي إلى أولاد سيدي الشيخ الفرع الغربي، ولد بفجيج وبالضبط بقصر الحمام حوالي 1838 (Bezy. 1889)، و هناك رواية أخرى تقول أنه ولد في فورات مستورة قرب واد زوزفانة, لقد تعلم القرآن الكريم منذ نعومة أظافره متأثرا بأجداده، انتقل

إلى فجيج، حيث واصل تعليمه على يد عدد من الفقهاء أشهرهم محمد بن عبد الرحمان (عبد القادر خليفي. 2006: 79.) أحد مقدمي الطريقة الشيخية فتلقن مبادئ الكتاب والسنة الشريفة وتعاليم التصوف، كما عرف بالورع والحكمة وسداد الرأي وحسن التدبير، وقد ارتحل إلى المغرب الأقصى ليزداد إطلاعا وينهل من العلم قدرا أكبر حيث ذاع صيته بين القبائل فحظي بالاعتراف بالمشيخة.

تأسيسه لزاوية الدينية:

لقد تمكن بوعمامة سنة 1875 من تأسيس زاوية دينية بمغرار التحاني (القريبة من مدينة عين الصفراء) على الطريقة الشيخية (Henry douveyrie.1883: in B.S.GA. de paris 1884 : 184) وبذلك أعاد للطريقة التي أسسها عبد القادر بن محمد المتوفى في مطلع القرن السابع عشر الميلادي إشعاعها، إذا أصبحت أحد عناصر الوحدة (عبد القادر خليفي. 2006: 83).

لقد كانت طريقة الشيخ بوعمامة بعيدة كل البعد عما انغمست فيه الطرق الأخرى من شعوذة ، وكانت متشددة في مقاومة المنكرات والانحراف عن مبادئ الدين الحنيف، ولم تكن تعادي بقية الطرق الصوفية المتواجدة على الساحة، بل كانت تعمل على تأليف القلوب وجمع الشمل في وقت كان الناس أحوج من يشد بأيديهم.

لقد كان لأبي عمامة ذلك التأثير الديني على أهالي القصور و قبائل حميان وذوي منيع وأولاد جرير وطرافي وبني جيل والأحرار والرزاينة وغيرهم، فنال الإعجاب والتقدير وكانت ترى فيه هذه القبائل المهدي المنتظر الذي جاء ليخلصها من بطش الفرنسيين الكفرة.

- جهاده:

لقد تمكنت السلطات الفرنسية من القضاء على مقاومة أولاد سيد الشيخ الأولى التي دامت أكثر من 25 سنة واستمالة قادتها و زعماءها الدينين، كما استطاعت أن توظف عددا لا بأس به من الفرنسيين والمعمرين بمنطقة أولاد سيدي الشيخ، كما قامت بمصادرة والاستيلاء على جميع أراضي الأهالي عنوة، بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة وجعل منطقة أولاد سيدي الشيخ همزة وصل بين الجزائر الشمالية والجنوب وذلك بربطها بخط السكة الحديدية.

هذه الأسباب مجتمعة دفعت بابي عمامة إلى إعلان الجهاد المقدس ضد الفرنسيين الكفرة، بعدما تمكن من جمع شمل القبائل بعد أن أرسل إليهم المبعوثين يدعوهم للتعبئة ورصد الإمكانيات، لجمع المؤن والسلاح والذخيرة وذلك عن طريق مقاديم الطريقة المنتشرين عبر كل من قبائل طرافي و رزاينة والأحرار وقد وجدت هذه الدعوة صداها إذ تمكن بوعمامة في وقت قصير من جمع حوالي ألفين وثلاثمائة جندي بين فرسان ومشاة.

قبائل طرافي	700
أولاد زياد	180
الأحرار.....	160
أولاد سيد الشيخ (الغرابة)	250
أهل مغرار	100
أولا عمور.....	170
أولاد سيد التاج	50
القصوريون	500
قبائل أخرى	190
المجموع:	2300

اغتنم الشيخ بوعمامة فرصة غياب الجيش الفرنسي المرابط بالمنطقة الوهرانية للمشاركة في الحملة على تونس أفريل 1881 فأعلن الجهاد المقدس ضد الفرنسيين وتزامن هذا الإعلان بالضربة التي ألحقت بحملة فلاتير التنصيرية من قبل بعض المجاهدين الطوارق بالصحراء الشرقية الجزائرية أفريل 1881 (Réveil de Mascara n° 67, 8 Mai 1881) (Ageron, Charles Robert.1968.) .

كان أول لقاء بين بوعمامة والقوات الفرنسية يوم 27 افريل 1881 بموقعة سفيسفة جنوب عين الصفراء أحرز فيهما المجاهدون انتصارات خارقة (SARI Djilali .1981: 93.)، الأمر الذي دفع بالفرنسيين إلى تنظيم أنفسهم لإخماد الثورة والحد من لهيبها، فأرصدت السلطات الفرنسية طابورا في منطقة "طفاراوا" كان يضم هذا الطابور القوات المسلحة التالية:

1- ثلاثة فيالق من المشاة (الأول من الفرقة الثانية من الزواف والثاني من اللفيف الأجنبي والثالث من القسم الثاني رماة تحت قيادة العقيد سونية Swiney من الفرقة الثانية زواف.

2- الفرقة الرابعة لقناصة إفريقيا تحت قيادة العقيد اينوسنتي Innocenti.

3- فرقة مدفعية.

4- فرق الخدمات المختلفة المساعدة.

5- الفرق الثلاث من قوم سعيدة وفرندة وتيارت.

واصل الطابور سيره يوم 14 ماي متوجها نحو إقليم مغرار مركز تجمع المقاومين فوقع الاحتكام الحاسم بينهم و بين الفرنسيين يوم 19 ماي 1881 في معركة طاحنة بموقعه موليق أو مويلك وهو ميدان فسيح يقدر عرضه بثلاثة كيلومترات متكون من تلين متوازنين تقريبا وهو يقع قرب قصر الشلالة.

لقد تمكن المجاهدون من تحقيق المعجزة وإلحاق الهزيمة بالقوات الفرنسية وتلقينها درسا في فنون الحرب وقد تضاربت التقارير العسكرية حول نتائج هذه المعركة وخسائر الفريقين فمنها تقول أن المجاهدين فقدوا أكثر من 300 قتيل في الميدان في حين تقول مصادر أخرى أن الخسائر الفرنسية قدرت ب 60 قتيلا و22 جريحا (.GAFFARL Paul. 1883: 264) مقابل مائتي شهيد وقد قدرها العقيد إينوستني في تقريره إلى وزير الحربية الفرنسي بسبعة وثلاثين قتيلا وستة عشر جريحا من بينهم ضباطا وأربع مفقودين من الجانب الفرنسي، في حين قدر عدد ضحايا الشيخ بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة قتيل.

لقد قامت السلطات الفرنسية بإضعاف صدى هذا الانتصار والتشكيك فيه بين القبائل من أن بوعمامة قد أباد الجيش الفرنسي وذلك حتى لا تنتشر عدوى الانفصال والتمرد في أوساط القبائل الأخرى وخاصة الموالية للفرنسيين وكذلك لرفع معنويات الجيش الفرنسي المنهزم وكان ذلك عن طريق الإعلام خاصة على صفحات جريدة يقظة معسكر Réveil de Mascara معسكر، لكن الأحداث التي سجلت بعد هذه المعركة تبين عكس ما جاء في التقارير العسكرية ذلك أن هذه الموقعة تعد انتصارا لبوعمامة ورجاله بدليل أن الجيش الفرنسي أصبح يتخوف من مواجهة بوعمامة.

ـ مسيرة بوعمامة التاريخية:

استغل بوعمامة تذمر الجيوش الفرنسية ليقوم بمسيرته الشهيرة نحو الشمال التي استغرقت حوالي ثلاثة وعشرين يوما من 30 مايو إلى 21 جوان 1881 و هذا مباشرة بعد معركة مولاق التاريخية قاطعا الخط الرابط بين البيض ستيتن ثم سيدي عبد الرحمان حتى سعيدة شمالا ليعود ثانية إلى قصر بوسمغون قاطعا الخط الرابط بين سعيدة، الخيثر المشرية، عين الصفراء، حيث برهن بوعمامة مرة أخرى عن تفوقه على الطوابير التي ترصدته من أجل القضاء عليه و عرقلة مسيرته، و قد أدهشت هذه المسيرة الرأي العام الفرنسي في كيفية تحرك أتباع بوعمامة من قرية إلى أخرى بسرعة فائقة (مبخوت بودواية. 2002: 277) .

قام الثوار خلال هذه المسيرة بقطع خطوط التلغراف الرابط بين فرندة والبيض ومهاجمه مراكز الشركة الفرنسية الجزائرية للحلفاء، وقتل العديد من العمال الأسبان الذين يشتغلون بهذه الشركة، كما احرقوا واتلفوا الكثير من العتاد وحسب المؤرخ أجيرون فأن مسيرة بوعمامة خلفت أكثر من 53 قتيلا كان جلهم من الأسبان إضافة إلى تحطيم منشآتهم.

فاتخذت السلطات الفرنسية إجراءات حازمة وسريعة من اجل حماية مصالحها من المقاومين الزاحفين نحو الشمال فركزت أربعة طوابير في النقاط التالية.

- رأس الماء (العقيد Janin)
- الخيثر (العقيد سويناوي Sowiney)
- تيارت (العقيد Brunetiere)
- البيض (العقيد Tadieu) في انتظار وصول العقيد دي نغريه De Négrier

ولقد التجأت السلطات الفرنسية إلى استعمال جميع الوسائل لتحطيم وإيقاف المقاومة كتحريض القبائل والأعراش فيما بينها كما سارعت إلى إرجاع قواتها التي اشتركت في احتلال تونس وإرسال قوات أخرى نحو الجنوب الغربي من أجل تطويق الثورة والقضاء عليها وبالتالي التوسع في المنطقة وبسط نفوذها على كل قصور الجنوب الغربي الجزائري، وقد كلف العقيد **دي نغريه** بمهمة معاقبة القبائل

التي شاركت في المقاومة، و نسف زاوية سيدي الشيخ الكبيرة المتواجدة بقرية الأبيض سيد الشيخ في 15 أوت 1881، ولم تكتف قوات **نغريه** بهذا العمل بل راحت تقوم بأعمال شنيعة يندى لها جبين الإنسانية، فقد وصل الأمر **بنغريه** إلىنبش قبر سيدي الشيخ وكان يهدف من وراء ذلك الاستهزاء بالرموز الروحية التي تحث السكان على الجهاد والمقاومة والدفاع عن الوطن والدين وتشتيت وحدة الأهالي الملتفين حول الزاوية التي تمثل النواة الدينية والسياسية لهم.

لقد قامت القوات الاستعمارية بتحطيم قصري بوعمامة وهما قصر مغرار الفوقاني ومغرار التحتاني وتدمير زاوية بوعمامة وقتل الكثير من الأهالي، ثم الهجوم على أهالي منطقة عمور فقتلت العديد منهم وأحرقت خيامهم وأتلفت ذخائرهم ونهبت مواشيهم.

لقد أرغم بوعمامة على الانسحاب متجها نحو منطقة فجيج بالمغرب الأقصى ليباغت القوات الفرنسية التي كانت تحمي البعثة الطبوغرافية بهجوم عنيف يوم 16 أفريل 1882 في شط تقري ويتكبد العدو خسائر كبيرة في الأرواح و العتاد.

لقد سادت المرحلة الثانية والأخيرة من جهاد بوعمامة فتورا لم تشهده من قبل، فقد استقر بوعمامة بمسقط رأسه الحمام الفوقاني 1883 م، غير أنه ضاق درعا من السلطات المغربية التي أرغمته على اللجوء إلى واحات التوات وانتهى به الاستقرار بواحة دلدول بإقليم قورارة 1883 ليستقر هناك إلى غاية 1894، إذ قام بتأسيس زاوية هناك.

وشرع في تنظيم دروس دينية ليكتسب أنصارا وأتباعا جدد ليواصل بهم الجهاد المقدس ويوقف زحف التوسع الفرنسي نحو جنوب الغربي من جهتها سعت السلطات الفرنسية إلى كسب ود الشيخ بوعمامة، فقد توصل بوعمامة في 1892 برسالة من المفوضية الفرنسية بطنجة تحمل وثيقة الأمان من الحاكم العام الفرنسي كامبون (91- 1897)، لكن بوعمامة رفض كل تعامل أو تصالح مع الفرنسيين.

ـ عودة الشيخ بوعمامة من واحة دلدول واستقراره بفجيج :

لم يتنقل بوعمامة إلى مدينة فجيج المغربية بل انتقل إلى الحوش التحتاني 1895 على واد زوزفان قرب منطقة فجيج ليتمكن من جمع إمكاناته ورص صفوفه واستقبال الوفود التي لبت دعوة الجهاد، كما كان يعمل على تنقية

الأجواء بين العشائر المتعادية وإبعاد العناصر المشوشة لتطهير حركته الجهادية كإبعاده لبعض من الشعامبة رغم شجاعتهم و قدراتهم القتالية. لقد استقر بوعمامة بفجيج في عام 1896 بعد أن اطمأن لنوايا السلطات المغربية، و يبدو أن هذا التقارب قد أثار قلق ومخاوف السلطات الفرنسية، خاصة بعد أن اعترف ببوعمامة كزعيم لأولاد سيدي الشيخ وكمشرف على المنطقة الصحراوية وهذا ما كانت ترفضه السلطات العسكرية الفرنسية، لذلك حاولت السلطات الفرنسية كسب ود الشيخ بوعمامة عله يساعدها في بسط نفوذها على الأراضي الغير المحتلة وهذا ما قام به الحاكم العام **لافريار** La Ferrière يوم 1889/10/16 بمنح الشيخ بوعمامة الأمان التام بدون أي شرط أو قيد غير أن بوعمامة - رغم تبادل الرسائل بينه وبين لافريار - لم يثق في سياسة فرنسا وكان يدرك كل الإدراك نوايا فرنسا المتمثلة في همها الوحيد و هو ترسيخ أقدامها في المنطقة.

دخل الشيخ بوعمامة المغرب، هروبا من بطش الفرنسيين ومحاصر قوات ليوتي له، واشتغل بمشاكل وقضايا المغرب الداخلية، إلى أن التجأ إلى نواحي مدينة وجدة بعين سيدي ملوك حيث وافته المنية في أكتوبر 1908 (حسن صبحي. 1965: 172).

خاتمة:

كان للشيخ بوعمامة الفضل في إحياء الطريقة الشيخية ونشرها جنوبا وشرقا، شمالا وغربا، ولقد انطلقت ثورته من هذه الزاوية، فكان بوعمامة زعيما دينيا ومجاهدا منصوفا اشتهر بالورع وحب الوطن، فكانت حركته دينية سياسية شعارها مقاومة الاحتلال وإيقاف الزحف الاستعماري نحو المناطق الجنوبية.

لقد كان لمقاومة بوعمامة صد جهويا وعالميا، فقد كتبت عنها جريدة التايمز اللندية التي لقبت الشيخ بوعمامة بالأمير عبد القادر الثاني، كما كتبت عنها جريدة البرهان المصرية الصادرة بمدينة الإسكندرية وعن خصال الشيخ بوعمامة ومكانته الحسنة بين رفاقه في التصدي للفرنسيين وإيقاف زحفهم نحو المناطق الجنوبية للجزائر.

كان لجل الطرق الصوفية المتواجدة بالجزائر موقفا إيجابيا تجاه القضية التي ناضلت وجاهدت من اجلها الطريقة الشيخية وهي محاربة الفرنسيين الكفرة

ومن بين هذه الطرق طريقة السنوسية المناهضة للاستعمار والمدافعة عن القضايا الإسلامية في العالم، ويذكر أن الشيخ بوعمامة وجد القبول والترحاب من قبل أتباع ومقدمي الطريقة الطيبية التي كانت متواجدة بقوة في توات وقرارة، ومن قبل الطريقة الكرزازية التي كان يتواجد مركزها في بلدة بني عباس.

المراجع والمصادر:

- أندري يريان و آخرون. (ب س) الجزائر ما بين الماضي و الحاضر.
- حسن صبحي، (1965) التنافس الاستعماري الأوربي بالمغرب 1884- 1904، دار المعارف المصرية، مصر.
- عبد القادر خليفي، (2006) الطريقة الشيخية ، دار الأديب للنشر و التوزيع و هران.
- مبخوت بودواية (2002) الشيخ بوعمامة الرجل المتصوف و المجاهد ،حولية المؤرخ العدد الأول.
- مبخوت بودواية، (1992) مقاومة سيدي الشيخ بالجنوب الغربي الجزائري 1864- 1908 رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين الشمس مصر
- Ageron (Charles Robert) : les algériens musulmans et la France 1871-1919, tome 1 Paris 1968.
- BEZY: L'insurrection de sud oranais réponse à sahraoui , ORAN 1889.
- Colomb , notes sur les oulad sidi cheikh in A.O.M 22 H 9.
- Deligny : notice historique sur les Oulad sidi cheikh et leur établissement en Algérie jusqu'en 1849 . In A.O.M 22 h 9
- GAFFARL (Paul)/ L'Algérie histoire, conquête, colonisation, Paris, 1883.
- Guenard (l) : les oulad sidi cheikh extrait du B.S.G.A. d'Oran , n ° 15,1883.
- Henry Douveyrie , la confrérie musulmane De sidi Mohamed ben Ali Essenoussi Et ses domaines géographiques En l'année 1300 de Hégire 1883 in B.S.GA. de paris 1884.
- Jacques Carret Les maraboutismes et les confrérie …. marabouts et khouans.
- Pansard , histoire de oulad sidi cheikh , manuscrit De 190 pages, 1886 in A.O.M.22 H 1.
- Réveil de Mascara (Algérie) n° 67, 8 Mai 1881 in archive wilaya d'Oran.
- SARI (Djilali) : L'insurrection de 1881-1882 SNEDAlger 1981.